ليست الا المقدمة الضرورية لاختراع وصياغة الفعل الذي يقوم عليه العمل الفني ، لكن مسألة الفعل Action هذه تكون النقطة المركزية لمعضلات الشكل الروائي · فكل معرفة لشروط المجتمع تبقى مبهمة وبدون فائدة اذا لم تصبح عاملا في تكامل الفعل ، وكل وصف للوضع الاجتماعي يظل ميتا وفارغا اذا بقي مجرد وصف دون ان يستطيع ان يصبح لحظة نشيطة في مجرى الفعل · ان هذا الوضع المحوري للفعل ليس مجرد بدعة شكلية ، بل تمليه ضرورة تقديم انعكاس موائم للواقع · فاذا اراد الروائي ان يرسم العلاقة الحقيقية بين الانسان والمجتمع ، بين الانسان والطبيعة ، بشكل يظهر فيه العلاقة الديالكتيكية بين الوعي والوجود ، فان سبيله الوحيد هو رسم الانسان في فعله ، فمن خلال الفعل والممارسة يعبر الانسان عن « جوهره » ، وعن الشكل الحقيقي والمضمون الحقيقي لوعيه· لهذا فان اصالة الخيال الروائي تكمن في قدرته على اختراع واختيار القصة ، الحدث ، او الموقف الذي يعبر فيه ، ومن خلاله ، « الجوهر » الانساني ، عن العناصر الاكثر نمطية في وجوده الاجتماعي · ان شكل الموقف الذي يصطفيه الخيال الروائي العارف لواقعه هو الذي يحدد الشكل الروائي ·

تتحدد الشروط التي يظهر فيها الفعل ، شكله ومضمونه ، بمستوى التطور الاقتصادي للمجتمع والصراع الطبقي الدائر فيه ، الامر الذي يفرض على الرواية ضرورة القاء الضوء على التحديدات الجوهرية للمجتمع ، بواسطة الخصائص الفردية ، الفعل والحركة، وعالم الانسان المتفرد وهما في شقائه وعذاباته · ويمكن ان تتجلى هذه التحديدات الجوهرية في علاقة الانسان بمجتمعه ، وفي مصير هذا الانسان وقدره ·

اذا كانت الذات او الشخصية لا تحدد الشكل الروائي بشكل كامل ، فانها بلا شك تلعب دورا هاما في هذا التحديد · فشكل العلاقة التي تربط الفرد في مجتمعه تكون احد السمات الاساسية للرواية وللملحمة معا · ففي زمان الملحمة كان الانسان مركز العالم ، يتحرك كجزء من كل وكعنصر في مجموعة · وكان هذا الكل/المجتمع يقاتل موحدا ، وبشكل واحد ، ضد العدو الخارجي · ان الشكل التاريخي للفرد وللمجتمع لا يمكنه الا ان يحكم البنيان العام للعمل الفني سواء كان ملحمة ام رواية · فبعد اندثار عالم الشعر ، وغروب زمان « طفولة الانسانية » ، دخل الفرد في زمان النثر ، ففقد الفعل كونيته ، انقسم المجتمع الى طبقات ، ودخل الفرد الى عالم « الاثم الكامل ، فتشظى · لم يعد الفعل جماعيا ، انشطر الانسان والفعل ، فبحث الفرد عن« جوهره » المفقود ، وغاب الفعل الجماعي ليحل مكانه صراع الطبقات · في عالم « الاثم الكامل » ـ المجتمع الرأسمالي ـ افقد التاريخ الرواية نموذجها الكوني ، وأصبح البطل النموذجي (النمطي) طبقيا لا كونيا ، واكثر من ذلك أصبح النموذج الكوني مزحة سمجة يمجها التاريخي ويعري وهمها بدون عناء · ومع تطور المجتمع البرجوازي تطور وضع الرواية ، واذا كانت هذه الرواية ترصد في البدء التناقضات الجوهرية وانسانا تنزل ، فقد توجب عليها فيما بعد ان ترصد التعارض بين الفرد والمجتمع الذي تجلى في صراع طبقي شرس وبلا قلب ، وحتى عندما كانت تنزع الرواية الى الشكل الملحمي ، فان نزوعها هذا لم يكن ممكنا الا بقدر استطاعتها على رسم نمطية وتعارضات الطبقية في كليتها المتحركة ، والفرد النمطي في حقله الطبقي ·

ان احتدام الصراع الطبقي وتعمق التناقضات الاجتماعية لم يجدد الرواية في مستوى المضمون فحسب ، بل قدم ايضا الامكانية الفعلية للفعل الروائي الحقيقي ، وكرس الرواية كقوة فنية حاسمة لفترة تاريخية باكملها، وطرح في الوقت ذاته معضلات جديدة أمام الفعل الروائي والشكل الروائي · انتجت الحركة الاجتماعية شكلا جديدا من الفعل ، واعادت